

التجديد الجماعي

صهوة الجهاد:

كانت النتيجة التي خلص إليها الباحث الذي كتب الحلقات الأولى من هذا الموضوع: أن التجديد بعد عمر بن عبد العزيز هو في الغالب تجديد جماعي، فالذي يقوم به ليس رجلاً واحداً بل أكثر من واحد في كل عصر، ونقل ترجيح الإمام ابن حجر لذلك، وهو ما رجحه الذهبي أيضاً وابن الأثير، كما نقل كلام ابن الأثير بأن التجديد لا يلزم أن يكون من جانب الفقهاء خاصة، بل إن الأمة تنتفع أيضاً بأولي الأمر وأصحاب الحديث والقراء . . .

وهذا الرأي هو الصواب - إن شاء الله - وخاصة في العصور المتأخرة التي يصعب أن يقوم رجل واحد بأمر التجديد فيها، والعجيب أن الذين تكلموا في التجديد لم يذكروا الولاية بعد عمر بن عبد العزيز، بل اقتصر على العلماء، بل اقتصر بعضهم على علماء مذهبه، وإذا كان التجديد جماعياً فما المانع أن يقوم ولاية بالتجديد في ناحية ويقوم علماء بالتجديد في ناحية أخرى، فقد يكون تجديد الولاية ببعث روح الجهاد في الأمة وإعادتها إلى عز بعد ذل، وهيبة وكرامة بعد إهانة، مع أن الجهاد لا بد أن يستتبع العلم ودراسة سيرة السلف من الصحابة والعلماء والمجاهدين، فتعود للأمة روحها.

ما قبل الإفاقة:

ومن الأمثلة البارزة على التجديد الذي يكون ببعث روح الجهاد في الأمة وإعادة الثقة إلى نفسها: ما قام به الملك الصالح المجاهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وما قام به بعده الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري.

وحتى نعلم قيمة ما أتى به هذان الرجلان لا بأس من أن نطل إطلالة على العصر السابق لهما.

في أواخر القرن الخامس الهجري كان قد انتهى دور السلاجقة الكبار الذين كان لهم دور كبير في إعادة القوة للمسلمين، ومعركة (ملاذ كرد) التي انتصر فيها (ألب أرسلان) على الروم انتصاراً ساحقاً جعلت الروم يفكرون طويلاً قبل محاولة الاستيلاء على أي بلد من بلاد المسلمين. وجاء بعد هؤلاء أولادهم وأحفادهم وتمزقت الدولة شراً ممزقاً، وتحولت كل مدينة بل كل حصن أو قلعة إلى دولة، وكل يحاول امتلاك أكبر عدد ممكن من الحصون، ويستنجدون بالبعيد والقريب والعدو والصديق لحماية أنفسهم وزيادة ملكهم، فلا حصلوا دنيا ولا أقاموا ديناً، وجاءت الحملات الصليبية إلى بلاد الشام، ولكنها لم تحرك فيهم ساكناً، بل استنجد ملك دمشق بالصليبيين خوفاً من عماد الدين زنكي، وكذلك فعل (شاور) وزير العبيديين في مصر، طلب الحماية من الصليبيين خوفاً من نور الدين محمود، وأما الخلافة العباسية

في بغداد فقد كانت من الضعف بمكان ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذا السبيل .

هذه هي الحال المؤسفة التي آلت إليها بلاد المسلمين في مطلع القرن السادس ، وهي حال تمر بها الشعوب أحياناً ، فتصبح أسيرة الذل والأوهام ، والنظر القاصر ، والأناية المفرطة التي تؤدي إلى التكالب على الدنيا دون النظر إلى العواقب .

بعد هذا التفرق وهذا الضعف جاء نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين ، فأعادا الثقة إلى الأمة بجهادهما وإخلاصهما .

التجديد الجهادي عند نور الدين محمود (٥١١ - ٥٦٩ هـ):

إن العلامة البارزة في شخصية هذين الملكين هي الجهاد ، وإن كانت لهما مميزات أخرى من حب العلم وإقامة العدل وفتح المدارس ، ومن صفات شخصية مثل : التواضع والحلم والشجاعة ، ولكن إثارة الجهاد في حياة الأمة الذي أصبح همهما وديدهما هو موضع التجديد .

قال المؤرخ أبو شامة عن نور الدين : «وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها . فقال له قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، فقال : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا؟»^(١) . ومن حبه للجهاد

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ، ١ / ٨ .

أنه طلب من أمراء الجزيرة النجدة للوقوف في وجه الفرنجة، فأجابه البعض وتلكأ أحدهم ثم عزم، وعندما سئل عن السبب قال: «لقد كاتب نور الدين الصلحاء والعلماء في الدعاء له ودعوة الناس للجهاد، فإن لم أساعده أخذ ملكي مني»^(١).

وقد عاتب نور الدين السلطان السلجوقي (قلج أرسلان) الذي كانت بلاده مجاورة للروم، فقال: «أنت مجاور للروم ولا تغزوهم! وبلاك قطعة كبيرة من بلاد المسلمين، ولا بد من الغزاة معي»^(٢). وأما تفاصيل غزواته وجهاده للصليبيين وانتصاره عليهم في أكثر المعارك، واستعادة كثير من البلدان والحصون منهم، فهو مثبت في كتب التاريخ لمن أراد الرجوع لذلك، وكان - رحمه الله - يقدّر في نفسه أن يفتح القدس، وقد طلب تهيئة المنبر لليوم الذي يستعاد فيه المسجد الأقصى، ولكن فاته الأجل وقدّر الله ذلك للسلطان صلاح الدين. وأما أعماله الأخرى العظيمة: فهو الذي أمر صلاح الدين بإنهاء الدولة العبيدية في مصر وقطع الخطبة للعاضد، وأن يخطب للخلافة العباسية، وألح عليه في ذلك حتى استجاب له^(٣).

«وهو الذي جدّد للملوك اتباع سنّة العدل والإنصاف وترك المحرمات؛ فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه،

(١) ابن الأثير: الكامل، ١١/٣٠٢.

(٢) المصدر السابق، ١١/٣٩٢.

(٣) المصدر السابق، ١١/٣٦٩.

حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع، وبنى داراً للعدل، وخاف الأمراء من إحضارهم لهذه الدار فأنصفوا من أنفسهم، وأنصفوا الناس خوفاً من أن يعلم بهم نور الدين»^(١).

وإذا كان صلاح الدين هو الذي أكمل هذا الاتجاه وقام به على أكمل وجه، فإن الذي بنى هذا ومهد له، وولّى أمثال صلاح الدين على مصر وغيرها، هو نور الدين محمود - رحمه الله -.

التجديد الجهادي عند صلاح الدين (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ):

كان أول عمل عظيم قام به هذا السلطان هو إنهاء الدولة العبيدية بمصر، وعزل قضاتهم، وقد حوّل سجونهم إلى مدارس لطلبة العلم. وبعد وفاة السلطان نور الدين محمود لم يخلفه رجل قوي، مع أن المرحلة حرجية وتحتاج إلى مثل هذا الرجل لمواجهة الصليبيين، فتصدى صلاح الدين لهذه المسؤولية، وكانت الخطوة الرئيسة هي توحيد بلاد الشام ومصر وضم أكبر عدد ممكن من الأقاليم إلى هذه الوحدة، فضمت اليمن والحجاز وبعض أقاليم الجزيرة كي يتسنى حشد الطاقات لمقارعة الفرنجة، وجاءت نتائج هذه الوحدة سريعة - مع النيات الصادقة - فانتصر المسلمون في (حطين) انتصاراً ساحقاً. وكان الهم الأكبر لدى السلطان هو تخليص المسجد الأقصى من الكفرة، ففتح كل المدن الداخلية في فلسطين، وتم بعد ذلك فتح القدس بعد أن بقيت أسيرة ما يقارب تسعين

(١) الروضتين، ١ / ٧ - ٨.

سنة . وبعد هذه الانتصارات استولى حب الجهاد على قلبه ، فأصبح شغله الشاغل وهمه القائم القاعد ، فلا حديث له إلا الجهاد ، وفنون الحرب ، وكيفية استصلاح القلاع ، وصناعة أدوات القتال ، وألف العلماء في الجهاد وأصبح هو حديث الساعة .

وصف المؤرخ عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة ، وصف صلاح الدين فقال : « كان - رحمه الله - شديد المواظبة على الجهاد ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد وفي الإرفاد لصدقَ وبرٌّ في يمينه ، ولقد هجرَ في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمينه ويسرة»^(١) .

وقال عنه القاضي الفاضل : « وأما صبره في الجهاد ، فقد رأيتَه بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماطل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس ، ومع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى المغرب ، وهو صابر على شدة الألم ، وكان يقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل»^(٢) .

(١) الروضتين ، ٢ / ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ٢ / ٢٢٢ .

وكان السلطان قد عانى الأهوال في حصار عكا الذي استمر أكثر من سنتين، ومع ذلك صابر الكفار كل هذه المدة «ويكون هو أول راكب وآخر نازل. ومريض وأشرف على التلف ثم عوفي». ويضيف الذهبي: «ولعله وجبت له الجنة برباطه هذين العامين»^(١). وكان في حصار القدس يحمل الحجارة بنفسه حتى اضطر من حوله من الأمراء والوزراء إلى القيام بالعمل نفسه. بل تطلعت نفسه إلى أبعد من هذا، تطلعت إلى مهاجمة هؤلاء الصليبيين في عقر دارهم، يقول لصديقه الحميم القاضي الفاضل: «متى يسر الله - تعالى - فتح بقية الساحل، قسمت البلاد وأوصيت، وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت»^(٢).

بهذه النية الصالحة يسر الله استرجاع القدس، وفتح كل المدن الداخلية، ولم يبق للصليبيين سوى بعض المدن الساحلية. وبعد الحصار الدامي حول عكا، رجع إلى دمشق مستريحاً بعض الوقت، فوافاه الأجل صبيحة يوم الأربعاء من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة. وبوفاته - رحمه الله - انتهت هذه المرحلة من الزخم الجهادي وتجميع قوى المسلمين وصهرهم في بوتقة عمل موحد، ولم يأت بعده من استطاع إكمال المهمة، رغم مدافعة أولاد أخيه العادل للصليبيين، وخاصة في مصر. ولم يتحرر بقية الساحل من الأعداء إلا في عهد المماليك.

(١) سير أعلام النبلاء، ٢٢ / ٢١٠.

(٢) الروضتين، ٢ / ٢٢٢.

العلماء مع صلاح الدين:

إذا كان الشغف بالجهاد؛ وحمل هموم المسلمين، وتحرير أرضهم من الكفرة هي أبرز صفات صلاح الدين، فقد حُبِّي بصفات أخرى جعلته موضع احترام ومحبة المسلمين، بل موضع احترام أعدائه من الصليبيين، وجعلت أهل دمشق يحزنون على فراقه ما لم يحزنوا على ملك قبله.

قال كاتبه العماد الأصفهاني: «ومحافله أهلة بالفضلاء، ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد، حليماً، مقيلاً للعترة، نقياً تقياً، ما ردّ سائلاً، ولا خجل قائلاً»^(١).

وقد ارتحل هو وأخوته وأمرأؤه إلى المحدث أبو طاهر السلفي المقيم بالإسكندرية، وسمع منه الحديث. وقد اقترح عليه أن يسمع الحديث وهو في المعركة بين الصفين فاستجاب لذلك.

وقد هيا الله له بطانة صالحة من العلماء ينصحونه ويستمع لهم، منهم الشيخ علي بن إبراهيم بن نجا الأنصاري الحنبلي، قال أبو شامة عنه: «كان كبير القدر معظماً عند صلاح الدين، وكان واعظاً مفسراً»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء، ٢١ / ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق، ٢١ / ٣٩٤.

ومنهم الحافظ القاسم بن علي بن الحسن بن عساكر، جمع كتاباً كبيراً في الجهاد، وسمعه منه كله السلطان في سنة ست وسبعين^(١).

ومن العلماء المجاهدين مع السلطان: الفقيه عيسى الهكاري، قاتل يوم (الرملة) قتالاً شديداً وأُسر، ثم افتداه صلاح الدين بستين ألف دينار.

ومنهم الشيخ أبو عمر المقدسي، وهو من العلماء الصالحين المجاهدين، وكان لا يترك موقعة إلا حضرها، والشيخ عبد الله اليونيني الملقب بأسد الشام. وكان أماًراً بالمعروف، لا يهاب الملوك، وما فاتته غزاة.

ومن العلماء الكبار الذين عاصروا صلاح الدين ثم أخاه العادل بعدئذ، ويمثلون التيار العلمي المكمل للتيار الجهادي الحافظ الكبير عبد الغني المقدسي، والعالم المجتهد الرباني ابن قدامة المقدسي صاحب كتاب: (المغني)، كما هيأ الله لهذا السلطان وزير صدق، وكاتباً بليغاً مجدداً في الكتابة، وناصحاً مشفقاً على الأمة الإسلامية، ألا وهو: عبد الرحيم بن علي البيساني الملقب بالقاضي الفاضل، قال العماد الأصفهاني: «والسلطان له مطيع، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، ومقاليد غناه وغنائه، وكانت كتابته كتائب النصر...»^(٢). وقال العماد

(١) سير أعلام النبلاء، ٢١ / ٤١١.

(٢) المصدر السابق، ٢١ / ٣٤٠.

يصفه: «وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، يشتغل بالتفسير والأدب»^(١). وقال الذهبي عنه: «وقد انتهت إليه براعة الترسل، وبلاغة الإنشاء، وله في ذلك اليد البيضاء والمعاني المبتكرة والباع الأطول»^(٢).

وكان ناصحاً للسلطان، وإذا رأى شيئاً من المنكرات في جيشه بين له ذلك وطلب منه إزالتها، كما فعل في حصار عكا.

ومع حب صلاح الدين للعلماء وتقريبه للفضلاء، لا بد أن نذكر مآثرة أخرى له وهي: زهده وعدم اشتغاله بتمشير الأموال والضياع. قال ابن شداد كاتب سيرته: «لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة»^(٣).

رحم الله صلاح الدين ونور الدين، وجزاها الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق، ٢١/ ٩٣٩.

(٣) الروضتين، ٢ / ٢١٧.